جداول بلا ماء

تأليف

ثروت أباظة

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠

الفصل الأول

لم يكن توفيق فى أول أمره واسع الثراء وإنما كان واسع الذمة ، وقد استطاع بضميره المنعدم أن يجمع ثروة ما كان ليصل إليها بغير الذمة الخربة . ولو كان ضميره واعيا بعض الوعى لما بلغ الثراء الواسع الذى وصل إليه .

أبو توفيق يملك عشرين فدانا ، وكان الشيخ صبحى الحسينى قنوعا ذا دين وورع وتقوى ، فكان مكتفيا بما تغله أفدنته القليلة . و لم يكن له ورثة إلا ابنه توفيق ، وقد نال توفيق من التعليم أيسره . فقد أمضى سنة فى المرحلة الثانوية ثم خذله الجهد وكبت به الجياد ، وذهب ليستقر مع أبيه فى قرية الولجة ــ وإن كان قليلا ما يمكث بها ــ فقد كان دائم التنقل . وهو كان بلا ورع ، وكان يتقاعس عن القيام بفروض اللّه . وكان أبوه يحاول أن يعظه فيذهب وعظه أدراج الرياح ، ولا يستقبله من ولده إلا آذان صماء ونفس رافضة ، فقد كان كل همه منصرفا إلى جمع المال .

وفى يوم طالع الوالد ولده قائلا :

ـ قد عزمت على الحج فى عامنا هذا إن شاء الله .

ـ الحج !.. ومن أين لك المال ؟

ـ دبرته والحمد لله .

ـ متى ؟

ـ من قبل وفاة أمك رحمها الله ، فقد كنا فى عام وفاتها ننوى الحج وكنت عازما أن أبيع فدانا أحج به .

ـ تبيع فدانا ، أهذا معقول ؟!

ـ طبعا الفدان عندك أهم . على كل حال لقد اختار الله أمك إلى جواره ، وأنا رأيت أن أقتطع جزءا من إيراد الأرض فى كل عام ، وأصبح عندى اليوم ما أظن أنه يكفينى بإذن الله . ولا تخف فإن هذا الحج لن يؤثر على ما أحفظه للزمن .

ـ والله حرام عليك .

ـ اخرس يا فاجر .. أحرام أن أحج ؟ وتحلف أيضا .

ـ تضيق علينا العيش وتحرمنا من الضرورات لكى تحج أنت ؟



ـــ أى ضروريات حرمتك منها ؟ ها أنتذا مثل الثور لا ينقصك طعام ، وملبسك لائق . ولكن ليس عجيبا عليك أن تكفر بالنعمة ما دمت كفرت باللّه سبحانه .. قبحك اللّه !

ـــ الحج فريضة على من استطاع إليها سبيلا .

ـــ وأنا أستطيع إليها سبيلا .

ـــ بضيق الإنفاق الذى نعيش فيه .

ـــ المال ما زال مالى وأنا حر فيه . وأنا سأحج هذا العام غصبا عنك ، وسواء عندى رضيت أم لم ترض .

ـــ طيب فكّر فى صحتك .

ـــ ما لها صحتى ، هل شكوت إليك مرضا ؟

ـــ وبغير أن تشكو . لقد كبرت فى السن وأصبحت غير قادر على أداء مناسك الحج .

ـــ أرجو اللّه أن أموت هناك فأدفن بجوار النبى عليه الصلاة والسلام ، وأرتاح منك ومن زندقتك .

ـــ لا قدر اللّه .. ولكنى أخاف عليك .

ــ أنت لا تخاف عليّ ، بل أغلب الأمر أنك تتمنى موتى لتنفرد بالأرض .

ــ هل معقول ألا يخاف الابن على أبيه ؟

ــ نعم إذا كان الابن جاحدا زنديقا .

ــ أنا جاحد ؟

ــ ها أنتذا تجحد النعمة التى تعيشها عيشة لا ينقصك فيها شىء .

ــ أنا فقط أرجو منك أن تجعلنا نعيش فى سعة ، ما دام عندك من المال ما تستطيع أن تحج به .

ــ لقد كنت أجمع ما أحج به من حر مالى ، وأنت لا تشعر بشىء ينقصك ففيم اعتراضك ؟

ــ أنا خائف على صحتك .

ــ كذاب . وعلى كل حال سأحج بإذن اللّه .

ــ أمرك .

* * *

وسافر الشيخ صبحى الحسينى إلى الحج وانفرد توفيق بالأرض ، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئا بانفراده بها فهى ما زالت ملك أبيه .

ويشاء العلى القدير أن يموت الحاج صبحى بالحجاز بعد أن أدى المناسك . وكأنما استجاب له المولى جل جلاله ، وكأنما أراد له سبحانه أن يريحه من ابنه هذا الجاحد الزنديق وله الأمر من قبل ومن بعد .

*****

الفصل الثانى

وجد توفيق فى خزانة أبيه ألفين وستمائة وخمسين جنيها كانت كافية ليبدأ حياته الجديدة ، ويحقق جشعه البشع للحصول على المال .

فبعد وفاة أبيه بأيام قلائل قصد إليه عبد الموجود مصيلح :

ـ أهلا وسهلا بالشيخ عبد الموجود .

ـ أهلا بك . كيف الحال ؟

ـ معدن والحمد لله ، لولا حزنى على أبى رحمه اللّه .

ـ ربنا أكرمه ودفن فى أطهر مكان على البسيطة .

ـ واللّه لقد طلب هو ذلك .

ـ كلنا سنموت . ومن نعم ربنا عليه أن استجاب لدعائه .

ـ النهاية .. شرفت يا شيخ عبد الموجود .

ـ أنا أعلم أن الوقت غير مناسب ، ولكننى معذور فى قرشين .

ـ تحت أمرك .

ـ مائتا جنيه أردها إليك بعد شهر .

- وكم تردها ؟

- كم أردها ؟!

- طبعا ، لا يمكن أن تردها كما أخذتها .

- سبحان اللّه .

- سبحانه .

- أتريد أن ترابى يا ابن الحاج صبحى ؟

- هذه فوائد وليست ربا . لقد كنت خليقا فى هذا الشهر أن أستثمر المبلغ ويعود على بربح .

- ولو أن الحرمة تقع على المستلف بالربا وعلى من يسلفه ، ولكنى فى حاجة شديدة لهذا المبلغ . كم تريد ربا له ؟

- ليس ربا .

- هو الربا بعينه ، ولكنى مضطر أن أعتبره كما تسميه أنت . ليكن فوائد .

- كم تريد ؟

- آخذ المائتين ثلاثمائة .

- يا نهار أسود من الحبر ! تأخذ ربا خمسين فى المائة .

ـ وأكثر ..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـ إذن تكتب وصل أمانة بثلاثمائة جنيه .

ـ وصل أمانة ؟

ـ لأضمن حقى .

ـ والكمبيالة لا تضمن حقك ؟

ـ لا أحب المحاكم .

ـ أفعل بى ما تشاء . أكتب وصل الأمانة .

ـ ما دمت تعرف القراءة والكتابة فلتكتب أنت ، وأنا أملى عليك .

ـ أمرك .

ـ هذه ورقة وهذا قلم ... أكتب يا سيدى .

ـ بل أنت سيدى وسيد ظالم ... أمرى إلى الله .

ـ سبحانه جل شأنه .

ـ أتعرفه ؟

ـ هل ستكتب أم ستطيل لسانك ؟



ـ أكتب .

ـ أكتب فى أول السطر : تسلمت أنا ...

ـ ألا نقول بسم اللّه الرحمن الرحيم ؟

ـ كما تشاء .

ـ الواقع لا لزوم لذلك ، فإن ما نفعله لا يصلح معه اسم اللّه . كره اللّه هذا والمؤمنون .

ـ هل ستكتب أم نلغى الصفقة ؟

ـ أكتب .

ـ أكتب .

*****

وهكذا لم تمض ثلاث سنوات حتى أصبحت العشرون فدانا أربعين . وكان توفيق كلما زادت ثروته ازداد بخله ، فهو كز مقتر لا يخرج قرشا إلا بعد مفاوضات عريضة مع نفسه .

ولما كان لا بد له أن يأكل ، فقد استأجر خادمته وهيبة لتطهو له الطعام وتناوله ما يحتاج إليه وتنظف له البيت . ولو

أن موضوع النظافة لم يكن عنده ذا شأن . ولما كانت وهيبة تقارب الستين من عمرها وتتمتع بقبح شديد ، أصبح لا بأس عليها ولا على توفيق أن تبيت معه فى البيت فزوجها قد مات ، ولم تكن قد أتت له ببنين أو بنات وأمست هى وحيدة لا هم لها إلا أن تسعى لرزقها وحدها ، فهى راضية بعملها عند توفيق مهما يكن لحزا شحيحا .

وهكذا وجد كل من السيد والخادمة بغيته عند الآخر .

ولم يكن توفيق خبيرا فى الزراعة خبرة أبيه ، فهو لا يطيق خدمة الأرض . ولذلك كان تعامله مع زراع أرضه عن طريق المحمول ، فهم يزرعون الأرض ويسددون استئجارهم بما تنتجه الأرض من محصول . ويتولى بيعه هو للتجار ، وفلسفته فى هذا أن المحصول إذا كانت كميته كبيرة إلى حد ما يكون ثمنه عند البيع أكبر .

وتفرغ هو للإقراض بالربا الفاحش لكل من طحنه الزمن واضطره أن يقترض من توفيق صبحى ، وهم كثر لا يحصيهم عدد . فليس غريبا أن يصبح مالكا لأربعين فدانا بعد أن كان

لا يملك إلا عشرين ، فأغلب الأرض تملّكها من المدينين الذين عجزوا عن السداد . ومستقبلهم يتربص به السجن بتهمة خيانة الأمانة بموجب الإيصال الخبيث الذى يستكتبه توفيق للمقترضين فى كل قروضه . وكان من بين هؤلاء الشيخ إسماعيل عوض ، وكان رجلا يمتلك خمسة أفدنة وليس له إلا ابنة واحدة اسمها صبيحة . وقد احتاج للاقتراض ليجهز صبيحة التى خطبها ابن عمها عمران الدهشورى . وما كان بينه وبين خطيبته حب وإن كان بينهما ألفة ، وكان والد صبيحة حريصا على هذه الزيجة فقد كان ابن أخيه الأثير عنده .

وحين تسلم الشيخ إسماعيل القرض بدأ فى الاتفاق مع الصناع ليعدوا الشوار الذى لم يرد أن يشتريه جاهزا ليوفر الفارق فى الأثمان . وكان ينوى سداد الدين من محصول القطن ، ولكن موعد سداد الدين حل قبل أن يصبح القطن صالحا للجمع .

وهكذا لم يكن غريبا أن يقصد توفيق إلى بيت الشيخ إسماعيل ليتقاضى دينه ، وكان مقدار الدين ثلاثمائة جنيه .

فتحت صبيحة الباب ورآها توفيق عن كثب ، واقتادته إلى المضيفة واقتعد الأريكة فى انتظار الشيخ إسماعيل .

وبينما هو جالس هاجمت رأسه أمور وشئون ، وكان الهجوم خاطفا فى لحظات وجيزة . البنت حلوة وليس يعنينى فقرها فهذا الفقر سيجعل المهر ضئيلا ، ثم إنها أيضا لن تستطيع أن ترفع رأسها فى وجهى ، وهذا ما أريده فى الزوجة فهى إذا كانت على شىء يسير من الغنى ، ستكون متكبرة مزهوة بغنى أبيها مهما كان ضئيلا .

وجاء الشيخ إسماعيل وعلى وجهه فترة .

ــ يا مرحب يا توفيق أفندى .

ــ مرحبا بك .

ــ القهوة يا صبيحة .

ــ لا داعى لها .

ــ إكرام الضيف واجب .

ـ حتى وإن كان ضيفا ثقيلا ؟

ـ معاذ اللّه أنت رجل أمير وابن حلال .

ـ ولكن هذا لا يمنع أن مجيئى غير مرغوب فيه .

ـ لا قدر اللّه .

ـ أخذ السلفة سهل مريح ، ولكن سدادها صعب ثقيل .

ـ أنت تعرف أننا لم نجمع القطن .

ـ وصل الأمانة لا تاريخ له ، ولا شأن لى بجمع القطن .

ـ معروف أن الفلاحين يسددون ديونهم كلها بعد جمع القطن وبيعه .

ـ فلماذا لم تقل لى أن موعد السداد بعد بيع القطن ؟

ـ حسبت أن هذا أمر لا يحتاج إلى قول .

ـ فى الديون وسدادها لا بد من الاتفاق .. حتى القرآن أكد هذا المعنى .

ـ ما دمت ذكرت القرآن هل يوافق كتاب اللّه على الربا ؟

ـ إن ما أفعله ليس ربا ، إنما هو ريع للمال .

ـ علم اللّه أنه ربا وأنا وأنت مذنبان ، وأرجو من اللّه الغفران فهو يعلم سبحانه مقدار حاجتى لهذا المال الذى استلفته .

ـ على كل حال أنا لم أجئ إليك لندخل فى مناقشة شرعية .

ـ أنا متأكد من هذا ، وأعرف تماما ما جئت لأجله .

ـ المقصود ماذا أنت فاعل ؟

ـ لا يقدر على القدرة إلا اللّه .

ـ فما قولك فيمن يتنازل لك عن الدين كله ، أصله وفوائده .

ـ طبعا أنت لا تعنى ما تقول .

ـ ما قولك إذا كنت أعنيه ؟

ـ لا بد أنك ستطلب منى مقابلا لذلك .

ـ اللّه ينور عليك .

ـ ولا بد أنه طلب كبير .

ـ بنتك صبيحة .

ـ ماذا ؟!

ـ اسمها صبيحة وهى فعلا صبيحة .

وبدا الرعب على وجه الشيخ إسماعيل وهو يتمتم :

ـ لا حول ولا قوة إلا باللّه .

ـ مالك فزعت كأنما ظهر لك عفريت من الجن ؟

ـ ألا تعرف لماذا فزعت ؟

ـ حسبتك ستفرح وتبتهج للحظ العظيم الذى واتى ابنتك الوحيدة .

ـ يا رجل البنت مخطوبة .

ـ ولكنها لم تتزوج ولا كتبت كتابها ، وأظن لا تستطيع أن تقارن بينى وبين خطيبها عمران .

ـ يا توفيق أفندى ألم تسمع أن النبى صلى اللّه عليه وسلم نهى المسلمين أن يخطبوا على خطبة إخوانهم .

ـ سمعت ، ولكنى سأتحمل وحدى هذا الذنب ولا حرج عليك أنت .

فقال الشيخ إسماعيل فى أسى :

ـ إذا كنت ترتكب الكبائر التى نهى عنها اللّه وهو اللّه ، فلا شىء يستغرب عليك أن تفعل هذا بالخلق الذى أمر به رسوله عليه الصلاة والسلام .

ـ هذا ذنب يقع عواقبه علىّ أنا وحدى ، فماذا قلت ؟

ـ ألا أسألها ؟

ـ وافرض فرضا أنها مجنونة ورفضت ، ألا تقدر أنت العواقب ؟ إن الذى معى وصل أمانة عقوبته الحبس ، وليس كمبيالة .

ـ وحتى السؤال محرم علينا ؟

ـ وماذا أنت فاعل إذا لم توافق ؟

ـ أروح فى داهية .

ـ نقرأ الفاتحة ؟

ـ أتحفظها ؟.. أو تدرك قوله سبحانه : بسم اللّه الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، فوصف نفسه بالرحمن الرحيم مرتين فى ثلاث آيات . أتعرف أنت الرحمة الرحيمة ؟

– نقرأ الفاتحة .

– نقرأها والأمر له من قبل ومن بعد .

ووضع كلاهما يمناه فى يمين الآخــر وتمتمـا بفاتحـة القـرآن الكريم ، ولكن القراءة لم تمنع الشيخ إسمـاعيل أن يكـون فـى غاية الإحباط ، ويكون توفيق فى غاية السعادة .

*****

الفصل الثالث

أصيبت صبيحة بصدمة ودهشة حين أبلغها أبوها بالنبأ ، ولكن ما لبثت هذه الصدمة أن وهنت . وأين عمران من توفيق صاحب الأربعين فدانا . ربما أراد لى اللّه أن أعيش عيشة بعيدة عن القحط والفقر والعوز الذى أحياه أنا وأبى ، ومستقبلى مع عمران كان سيسوده نفس الفقر ، إن لم يكن أدهى وأمر . وأى مصير كنت سألقاه إذا خلفت أولادا ؟ إن الأمر حينذاك سيكون بالغا حد العوز والفاقة .

وماذا عن حبك لعمران ؟ يغور الحب وأيامه . وهل كنت وجدت خيرا منه و لم أحبه ؟ ابن عمى وشكله مقبول وأدركت أنه سيطلبنى للزواج ، فصبرت نفسى على الهم وهيأت نفسى لقلبى أنه يحبه ، واللّه يعلم أنه لا حب هناك ولا يحزنون ، وإنما كان رضى بالأمر الواقع . وأنه يملك ثلاثة فدادين أمر نادر بين شباب الفلاحين . ولن يجد أبى عذرا يجعله يرفض زواجه منى . الحمد للّه غمة وانزاحت وأراد اللّه لى أن أصبح ستا لا خادمة . فإننى لو كنت تزوجت من

عمران كنت لاشك سأخدم فى البيوت حتى تصبح حياتى أنا وهو قابلة للعيش ، ولن أستطيع أن أرفض الخدمة . فأولا أنا أقوم بها وأنا فى بيت أبى ، وحين أصير زوجة عمران ستصبح خدمة البيوت حتمية إن كانت فى بيت أبى اختيارية . نعم يقولون عن توفيق إنه بخيل . ولكن مهما كان بخله فهو أهون من حياة العوز التى أعيشها مع أبى ، أو تلك التى كنت سأحياها مع عمران إذا تزوجته . على كل حال الزواج من غنى بخيل خير من فقير كريم .

الخيرة فيما اختاره اللّه .

وهكذا كانت صبيحة أقرب إلى السعادة بطلب توفيق ليدها . وقد تعجب أبوها مما أحسه من حبورها الذى يقترب من البهجة ، فقد كان يتوهم أنها تحب ابن عمها ، وكان يحسب أن ابنته ستحزن لاضطراره أن يقبل الخطبة الجديدة ولرفضه لعمران ابن أخيه . وكان يشعر بتأنيب الضمير أنه فسخ خطبة ابنته ممن كان يظن أنها تحبه حتى إنه قال لابنته فى صراحة :

ـ أنا آسف يا صبيحة ، فقد كان حبسى هو البديل عن زواجك من توفيق .

ودهش أنها قالت له فى غير مبالاة وفى صوت فيه رنة قريب من السعادة والابتهاج :

ــ ولا يهمك يا أبى ، ربما يكون ربنا أراد بى خيرا .

ــ فأنت لا تلومينني .

ــ ألومك ؟! معاذ اللّه .

ــ الحمد للّه . لقد أرحتنى من الهم الذى ركبنى .

ــ يا أبى أتكون مهموما لأنك زوجتنى من رجل فى غنى توفيق ؟

ــ حسبتك تحبين ابن عمك .

ــ الحب مقدور عليه .

ــ لقد أرحتنى يا ابنتى . أرجو اللّه عز وجل أن يكتب لك السعادة مع زوجك .

ــ آمين يا رب .

*****


ج ق

أما عمران فقد نزل عليه الخبر نزول الصاعقة ، فقد كان فعلا يحب صبيحة . وحاول أن يعاتب عمه ولكن الشيخ إسماعيل روى له الظروف التى تعرض لها عند قبوله لهذه الخطبة ، و لم يجد عمران ما يقوله . ولكن الشيخ إسماعيل سأله فى وضوح :

ـ هل ألام على ما فعلت ؟

وفى حزن وأسى ..

ـ لا لوم عليك ، وإنما اللوم على الرجل الفاجر الوضيع الذى لا يخشى اللّه ، ولا يرعى أى حق من حقوق البشر .

ـ لا تحزن يا ابنى . وربنا إن شاء اللّه يعوضك خير عوض .

ـ الأمر للّه . وحسبى اللّه ونعم الوكيل فى أمرك يا توفيق يا ابن صبحى .

*****

الفصل الرابع

المعلم متولى حسنين تاجر غلال واسع التجارة فى روض الفرج ، وهو من تجار الجملة المعروفين . وهو متزوج من امرأتين تسومانه العذاب بطلباتهما التى لا تنتهى . ولكل من الزوجتين ابنان وابنة . وهكذا يكون للمعلم متولى أربعة بنين وابنتان . أما أولاده من تفيدة البرشومى فهم يكبرون الأبناء الآخرين ، وابنه الأكبر هو سعيد وأخوه ياسر وأختهما الشقيقة هى نوال . أما أبناؤه من زبيدة الكرماوى فهم سليمان وأخته التى تصغره فريدة وأخوها الأصغر شكرى . والأبناء جميعهم فى المدارس ما عدا سعيد الذى فى السابعة عشرة من عمره ، وأخرجه أبوه من التعليم ليعمل معه فى التجارة . أما الأبناء الآخرون جميعا والبنتان فقد كانوا ما يزالون تلاميذ لأن سنهم لم تكن تسمح لهم بالعمل مع أبيهم . أما البنتان فقد كانتا صغيرتين وما تزالان تلميذتين فى المراحل الأولى من التعليم . وطبعا كان الزواج هو المصير الذى ينتظرهما ففلسفة المعلم متولى أن البنت ليس لها إلا الزواج .

وقد أثر زواج متولى بزوجتين وكثرة الأبناء على تجارته ، فقد كانت مصروفاته تكاد تبتلع مكاسبه . وقد جعله هذا يذهب إلى القرى ويشترى الغلال بنفسه بدلا من أن يشتريها من التجار الذين يتعامل معهم زملاؤه . وقد جعله سفره إلى المحافظات يشترى الأقطان أيضا ويبيعها لصناع الأثاث . وهكذا لم يكن غريبا أن يذهب المعلم متولى إلى توفيق الذى كان حديث الزواج .

ـ صليت بنا على النبى .

ـ عليه ألف صلاة وسلام .

ـ أنا أحببتك .

ـ من القلب إلى القلب .

ـ ما رأيك أنى أريد أن أشترى منك محصولك كله كل عام .

ـ وما رأيك أن عندى فكرة أحسن .

ـ عجل بها .

ـ ما رأيك أن أشاركك .

وصمت متولى وراح يفكر ما البأس ؟

الواضح أنه مليء وأمواله ستجعل تجارتى أكثر سعة ، وتعاوننى على المصاريف الكبيرة التى أنفقها على المرأتين والأولاد .

وقال توفيق :

ـ الأمر يحتاج كل هذا التفكير ؟

ـ على بركة اللّه قبلت المشاركة .

ـ توكلنا على اللّه .

ـ متى تستطيع أن تأتى إلىّ ؟

ـ غدا إذا شئت .

ـ اجعلها بعد غد ، حتى أكون قد حددت موعدا مع المحامى ليكتب عقد الشركة .

ـ وهو كذلك . إنما أريد منك خدمة أخرى .

ـ أنا تحت أمرك .

ـ أريد مكانا للسكنى .

ـ آه ... هذا أمر ليس يسيرا وإنما توكل على اللّه .

ـ اجعل محاميك يشترك معك فى هذا الموضوع .

ـ وهو كذلك . إنما طبعا أنـت تعـرف أنـك سـتدفع عنـد التعاقد مبلغا محترما .

ـ طبعا أعرف .

ـ اتفقنا .

ـ على بركة اللّه .

ـ على بركة اللّه .

*****

الفصل الخامس

قال توفيق لزوجته :

ـ أنا ذاهب إلى مصر .

وفى صرخة طفلة ساذجة :

ـ خذنى معك .

ـ هذه المرة لا ، ولكن من يعلم ربما نعيش هناك .

ـ والنبى ؟

ـ والنبى .

ـ أنا سأبشرك بشرى حلوة .

ـ هل أنت حامل ؟

ـ فى الشهر الثانى .

ـ أرجو أن يكون ولدا .

ـ إن شاء اللّه . والبنت ما لها ؟

ـ الولد يختار عروسه ، أما البنت فيختارها العريس .

ـ وماله ؟

ـ على رأيك .

ـ ولكن لا تتعبى نفسك فى شغل البيت .

ـ إذن أعد وهيبة إلى خدمتنا .

ـ ليس إلى هذا الحد .

ـ تساعدنى ؟

ـ الأمر لا يحتاج إلى مساعدة . حين تلدين قد نفكر أن نأتى لك بمن يساعدك .

ـ ربما نكون فى مصر ، والخدم هناك أجورهم عالية جدًا . نحضر وهيبة من الآن بأجرها الضئيل ، ونأخذها معنا إلى مصر وسيكون هذا أوفر لك .

ـ وهل تذهب وهيبة إلى مصر ؟

ـ وماذا يمنعها ؟ إنها مقطوعة من شجرة .

ـ واللّه فكرة . أحضريها .

ــ ربنا يطيل عمرك .

وهكذا عرفت صبيحة مداخل الطلب من زوجها ، فهو لا يقبل على شيء إلا إذا كان يوفر له مالا ، ولا يعنيه شيء فى العالم غير هذا .

ولذلك فهو غير غاضب على زوجته صبيحة ذات الجهل الفاضح ، حتى إنه لا يستطيع أن يحادثها فى أى شىء من مشروعاته المالية . وإن كانت صبيحة تعرف القراءة والكتابة فإن هذه المعرفة منها لا تعنيه فى شيء ، فهو نفسه لا ينتفع بما تعلمه من قراءة أو كتابة . حتى الصحف لا يشتريها فإن وجد منها شيئا عند صديق له لا يكاد يقرأ فيها شيئا . ولذلك وجد فى صبيحة كل ما تهفو إليه نفسه . فهى فى البيت لخدمته فقط . وإذا كان لها طلب عنده فهى تدرى كيف تطلبه منه بذكاء فطرى عفوى . فمثلا حين أرادت أن ترجوه أن يشترى لها فستانا قالت فى خبث فطرى :

ـ أنا الآن زوجتك ومقامى من مقامك .

ــ طبعا .

ــ والفلاحات كثيرا ما يحضرن إلىّ .

ــ المهم ؟

ــ إذا رأينني ألبس كما يلبسن سيلقين عليك أنت اللوم .

ــ طظ .

ــ النسوان كما تعرف صاحبات تأثير كبير على أزواجهن ، وأنت لن تستطيع أن تعيش وحدك .

ــ أنا أعيش مع أموالى .

ــ أموالك هذه لن تغنيك عن معاشرة الناس .

ــ المهم ماذا تريدين ؟

ــ فستانين .

ــ لما نذهب إلى مصر .

ــ يكون أحسن . ولكنى فى مصر سأقابل ستات وسيعرفن أخلاقك من ملابسى . والذين سنذهب إليهم فى

مصر لا يعرفونني ولا يعرفونـك ، وسـيحكمون بنظرتهـم إلى ملابسى إن كنت تنفق على أهل بيتك أو إنك بخيل .

ــ واللّه صحيح .

ــ طبعا صحيح .

ــ حين أرجع من مصر أشترى لك فستانا .

ــ واحدا ؟

ــ اثنين .

*****

الفصل السادس

نزل من القطار وراح يسأل الناس أن يدلوه على المواصلات الذاهبة إلى روض الفرج ، فلم يستطع أحد أن يدله . فاحتسب اللّه وركب سيارة أجرة .. والنزول من سيارة يعطينى قيمة غير الذهاب للمعلم متولى ماشيا .

لم يكن عسيرا عليه أن يجد الوكالة التى يبحث عنها . وعاجله المعلم متولى :

ــ يا مرحبا يا أهلا وسهلا . ماذا تشرب ؟

ــ ما تشاء .

ــ يا سعيد قل لهم أن يأتوا بكوب عصير قصب لعمك توفيق بك .

ونزل لقب بك على قلب توفيق بردا وسلاما ، فهم هنا لا يعرفون بعد أنه مراب كما كان أهل بلدته يعرفون . ولهذا لم يكونوا ينادونه إلا بتوفيق أفندى . وانتبه من سرحته ليقول فى سرعة :

ــ تشكر .

ووجد متولى يقول :

ـ أولا أعرفك بابنى البكرى سعيد . أخرجته من المدارس ليكون معى فى الوكالة .

ـ خيرا فعلت . باسم اللّه ما شاء اللّه ! أهلا يا عم سعيد .

ـ عمك توفيق بك صبحى سيصبح كما قلت شريكا لنا .

ويقول سعيد :

ـ يا أهلا يا مرحبا ! ربنا يجعل قدومه علينا أخضر إن شاء اللّه .

ويقول متولى :

ـ من أجل هذا طلبت عصير قصب ، فالذى أوله سكر سيكون كله سكر .

ويقول توفيق :

ـ إن شاء اللّه . ما الأخبار ؟

ـ كلها خير إن شاء اللّه .

ـ يا ترى هل تذكرت موضوع الشقة ؟

ـ طبعا تذكرته .

ـ خيرا إن شاء اللّه .

ـ خلو الرجل مرتفع جدا .

ـ وما العمل ؟

ـ أنا عندى فكرة .

ـ الحقنى بها .

ـ لماذا لا تشترى شقة وتكون ملكك ، وفى نفس الوقت لا تخسر خلو الرجل الذى سترميه بدون مناسبة .

وصمت توفيق بعض الوقت . وانتظر متولى عليه ليأخذ فرصته فى التفكير . خلو الرجل فلوس سيبتلعها المؤجر ولن تعود على بأى فائدة ، ثم إن الإيجار بعد ذلك سيكون مرتفعا . أما شراء شقة تصبح ملكا خالصا لى فهى رأس مال . وأنا نويت أن أقيم فى مصر دائما فلا عمل لى فى البلد إلا تسليف الخلق . وهذا أمر أستطيع أن أمارسه فى مصر بشكل أوسع وبعائد أكبر . التفت إلى متولى وقال له :

ـ والسعر ؟

ـ معقول .

ــ هل وجدت شيئا ؟

ــ واتفقت مع صاحب الملك وأمهلته حتى تأتى .

ــ كم حجرة ؟

ــ ثلاث حجرات وفسحة كبيرة .

ــ العمارة كم دور ؟

ــ خمسة وبها مصعد ، وفى كل دور أربع شقق .

ــ والشقة فى أى دور ؟

ــ فى الرابع .

ــ المصعد هو الذى جعل الشقة غالية .

ــ يا توفيق نحن الآن عندنا صحة ونستطيع أن نصعد أربعة أدوار . ولكن السكن للعمر كله فالمصعد سنحتاجه .

ــ هل يمكن أن أراها ؟

ــ الآن ، وهى قريبة من هنا وعلى النيل .

ــ سيارتك معك ؟

ــ تحت أمرك .

ــ هلم بنا .

ـ توكلنا على اللّه .

*****

واصطحب متولى ابنه سعيدا وذهب ثلاثتهم إلى الشقة . وكان الحاج خيرى الوزان المالك الذى كان فى انتظارهم فى العمارة ورافقهم فى الصعود إلى الشقة التى بهرت توفيقا إبهارا شديدا . ولكنه استطاع فى مقدرة التاجر المرابى أن يخفى إعجابه حتى لا يطمع المالك فى الثمن . وأحضر المالك خيرى الوزان بعض الكراسى وقعدوا . وقال خيرى التاجر المتمرس لتوفيق :

ـ واضح أن الشقة دخلت مزاجك .

وانتاب توفيقا الأسف أنه لم يستطع أن يخفى إعجابه إخفاء تاما ، وقال :

ـ لا بأس بها . ولو أن الحجرات ضيقة بعض الشىء .

ـ المهندس الذى رسمها من أكبر المهندسين فى مصر ، واتساع الحجرات هو القاعدة التى تسير عليها كل العمارات .

ـ النهاية هل أنت مصمم على السعر الذى قلته للمعلم متولى ؟

ـ هذا موضوع لا جدال فيه .

ـ هل تنوى أن تبيع الشقق كلها بنفس السعر ؟

ـ لا . أنا أبيع هذه الشقة فقط ، أما الشقق فقد أجرتها كلها . ولكن الفلوس قصرت معى بعض الشىء فقلت أبيع هذه الشقة .

ـ صل على النبى . أنا سأترك بلدتى وآتى لأعيش هنا . وأحب أن تكرمنى فأنا أبدأ حياة جديدة علىّ .

ـ واللّه هذا شأنك ، أما أنا فلا أستطيع أن أخفض شيئا من السعر ، فهذا سيجعل الأمر بخسارة .

واستمرت المحاكاة بين خيرى الوزان وتوفيق صبحى مدة تجاوزت الساعتين ، ولم يستطع توفيق أن ينزل السعر إلا بمقدار ألفى جنيه واشترى الشقة .

وكان متولى وسعيد صامتين تقريبا طوال الجدال الذى دار بين توفيق وخيرى ، حتى إذا تمت الصفقة تنفسا الصعداء ،



ولكن بعد أن وقر فى نفس متولى أن الشـركة مـع توفيـق لـن تكون سهلة أو يسيرة . وقال متولى لتوفيق :

ـ موعدنا مع المحامى فات ، فما رأيك ؟

ـ نذهب إليه بعد الظهر ، وبالمرة يكتب عقد الشقة .

ـ كـلام معقـول ... إذن تتغديـان عنـدى أنـت والحـاج خيرى ونذهب ثلاثتنا إلى المحامى بعد الظهر .

ودار جدال شديد بين ثلاثتهم فيمن يدعـو الآخريـن علـى الغداء . وكان صوت توفيق أكثرهم ضعفا وهمسا . وحسـم المعلم خيرى النقاش بقوله :

ـ أنا الوحيد الذى قبضـت فلوسـا ، فأنـا الـذى أدعوكـم وأمرى إلى اللّه .

وضحـك ثلاثتهـم وتم الغـداء فـى مطعـم الكبـاب علـى حساب خيرى .

وتمشى أربعتهم بعض الوقت وجلسـوا إلى مقهـى ، ودفـع متولى ثمن الطلبات حتـى إذا أصبـح الموعـد مناسبا ذهبـوا إلى محامى متولى الأستاذ حسان المهدى .

وبدأ خيرى الحديث بأن طلب من حسان المهدى كتابة عقد الشقة . وأخذ المحامى البيانات المطلوبة وانصرف خيرى إلى طيته وبقى متولى وتوفيق وسعيد .

وقال متولى لحسان :

ــ نريد أن تكتب لنا عقد شركة بينى وبين توفيق بك .

ــ على بركة الله .

والعجيب أن شروط العقد فى بين متولى وتوفيق لم تستغرق وقتا يذكر ، مما جعل بعض الطمأنينة تراود متولى بعد ما رآه من توفيق عند شرائه للشقة .

والواقع أن لكل من الشريكين أسبابا قوية فى الحرص على هذه الشركة ، فقد كان لمتولى جار فى الوكالة يضيق عليه الخناق فقد كان يبيع نفس ما يتاجر فيه متولى من أقطان وحبوب . وكان هذا الجار مدبولى وهبة يرخص أثمان بضاعته الأمر الذى كان يضيق به متولى غاية الضيق . وقد كانت مشاركة توفيق له تمكنه من إرخاص الأسعار حتى لا يستطيع مدبولى أن ينافسه .

أما توفيق فقد كان تواقا إلى الحياة فى القاهرة ليتوسع فى الإقراض بالربا . وكانت هذه المشاركة تتيح له الأموال الضخام التى يهفو إليها .

*****

الفصل السابع

توفيق فتى ما يزال شابا وقد كان عاديَّ القسـمات . فإذا رأيتـه لا تستطيع أن تميّزه بشيء معين ، فهو أسمر الوجـه سمرة خفيفة ، وواسع العينين إلى حد ما ، خفيف الشعر والحركة معا . وكان يرتدى الحلة الأفرنجية ويحرص على أن يطوق عنقه برباط ، وليس يعنيه أن تكون الحلة أو رباط العنق أو الحذاء على شيء من الأناقة ، فقد كان شحه الشديد يجعله لا يشترى إلا أرخص الملابس ، معتقدا فى فلسفة البخلاء أن أحدا لن ينتبه إلى رخص ما يرتديه .

أما متولى فقد كان على شيء من السمن ، وكان يرتدى الملابس البلدية ، ولكنه كان يحرص على أن يكون ما يلبسه من نوع جيد فى غير إسراف ولا بخل .

وكان ابنه سعيد نحيف القوام لا يخلو وجهه من ملاحة ، وكان يرتدى القميص والبنطلون فإذا حل الشتاء زاد عليهما بلوفر من الصوف .

*****

بات توفيق ليلته فـى فنـدق بسـيدنا الحسـين . وسـافر فـى اليوم التالى إلى البلدة ولقيته صبيحة فى ابتسامة عريضة ، وقد كان وجهها يزداد جمالا حين تبتسم ، فقد كانت ذات وجـه أقرب إلى الاستدارة ولها شعر تجيد تصفيفه . وكانت ما تـزال نحيفة فآثار الحمل لم تكن ظهرت عليها طبعا . قالت :

ــ الحمد للّه على سلامتك .

ــ اللّه يسلمك . إن شاء اللّه يكون المشوار خيرا ؟

ــ خير كل الخير . اشتريت شقة لنا . وأما أمورى الأخرى فقد سارت على خير ما يرام .

وكان توفيق قد تعود فـى حديثـه مـع صبيحـة ألا يطلعهـا على شىء من أعماله أو آماله ، فقد بدا له منهـا فـى وضـوح أنها لم تكن تعنى بشىء من هذه الأمــور ، فليـس يعنيهـا مـن زوجها إلا ما كان متصلا بشخصها ، أو البيت الذى تعـايش زوجها فيه . فلم يكن غريبا على توفيق أن لم تسأله عن شىء إلا الشقة .

ــ هل الشقة حلوة ؟

ـ على النيل .

ـ كم حجرة ؟

ـ ثلاث حجرات واسعة وفسحة نستطيع أن نضع فيها المائدة .

ـ مبروكة إن شاء الله .

ـ والأثاث هل سنشتريه من هناك أم من هنا من البندر ؟

ـ لا من هناك ولا من هنا . ماله هذا الأثاث ؟

ـ هذا الأثاث من أيام زواج أبيك الله يرحمه .

ـ وإن كان من أيام زواج جدى .

ـ شقة جديدة أليس من الطبيعى أن يكون أثاثها جديدا ؟

ـ الطبيعى أننا نأخذ هذا الأثاث .

ـ وأنت إذا جئت إلى هنا ؟

ـ سأحتاج إلى سرير وكرسى ومنضدة . نترك هذه الأشياء ونفرش بباقى الأثاث الشقة الجديدة .

ـ وإذا جئت إلى هنا وزارك بعض الناس ، ألا يجدون كرسيا يجلسون عليه ؟

ـ نترك أربعة كراسى .

ـ أهذا معقول ؟

ـ هذا هو المعقول .

ـ يا عالم شقة جديدة نؤثثها بأثاث أكل عليه الدهر وشرب .

ـ اسمعى ، لا مناقشة فى هذا .

ـ ما دام معك ما تستطيع أن تجدد به أثاث بيتك ..

ـ ولا كلمة .

وانقطع الحوار . فصبيحة إن تكن تستطيع أن تتسرب إلى عميق بخله لتشترى فستانا أو اثنين ، فهيهات لها وألف هيهات أن تجعله يشترى أثاثا جديدا .

*****

كان لتوفيق بعض الديون عند الناس وكان لديه لكل دين إيصال أمانة . فطاف على المدينين واستخلص منهم أمواله غير عابئ بالدماء التى نزفت من المدينين ليسددوا له ديونهم .

وكان المدينون جميعا يعلمون أن لا شيء فى العالم يستطيع أن يزحزحه عن هذا الوعيد . فكلهم لم ينس كيف تزوج ابنة الشيخ إسماعيل .

*****

وضع توفيق أثاث بيته جميعا فى سيارة لورى وترك من الأثاث ما أخبر به صبيحة . وركب هو وصبيحة بجانب السائق بينما سافر الحمّالان فى ظهر السيارة مع الأثاث .

وحين رأت صبيحة الشقة رضيت عنها ، وإن كانت ما تزال غاضبة بعض الشيء أنها لم تستطع أن تقنع زوجها بشراء أثاث جديد . إلا أنها كانت تعرف بخله الشديد ، وكانت قد تعودت عليه واحتسبت فى شأنه اللّه فهو نعم الحسب ونعم الوكيل .

*****

لم يكونا قد انتهيا من رص الأثاث حين فوجئا بالمعلم متولى وزوجته الأولى تفيدة البرشومى يدخلان من باب الشقة

الذى كـان مفتوحـا ، ووراءهمـا سـعيد يحمـل صينيـة كبـيرة مغطاة وضعها على المائدة .

وفوجئ بهم توفيق وصاح متولى :

ــ أهلا وسهلا .

ــ أهلا بكم فى مصر . هــذه زوجتـى تفيـدة ، أمـا سـعيد فأنت تعرفه .

ــ أهلا . وهذه زوجتى صبيحة .

ــ صممت أن أتغدى عندك اليوم .

ــ الواضح إنك أنت الذى ستغدينى .

ــ لا فرق .

ــ تفضلوا بالجلوس . يا وهيبة أعدى المائدة .

وقالت تفيدة لصبيحة :

ــ مرحبا بك فى مصر . واضـح إنكـم لم تنتهـوا بعـد مـن رص الأثاث ، دعينى أساعدك .

ــ يا أهلا بك كثر خيرك . الباقى حاجات بسيطة .

ــ وماله ؟ فقط نجعل الرجال يقعدون ويدى فى رص الأثاث على يدك .

وجلس متولى وتوفيق وسعيد فى غرفة كان بها بعض الأثاث . وقال متولى :

ــ زوجتك قريبتك .

ــ هى ابنة رجل طيب من بلدنا وهى حامل .

وسمعت تفيدة هذه الكلمة وصاحت صبيحة :

ــ أنت حامل ؟

وفى بعض الخجل قالت :

ــ نعم فى الشهر الثانى .

ــ إذن تقعدين مع الرجال واتركينى مع وهيبة نرص كل شىء .

ــ هل هذا معقول ؟

ــ هذا هو المعقول الوحيد .

وانصاعت صبيحة وجلست مع الرجال . ودار الحديث الذى لم تشارك فيه صبيحة بشىء يذكر ، فقد كان الحديث كله حول مدبولى وما يصنعه بمتولى . وانتهى بتوفيق قائلا :

ـ لا تفكر فيه أنا عندى دواؤه .

ـ تعمل فى معروف العمر .

ـ فقط أعطنى بعض الوقت .

ـ عندك من الوقت ما تشاء .

ـ حتى أعرف العاملين معك ، وأعطى نفسى فرصة للتعرف على العمل فى الوكالة .

ـ بسيطة .

ـ توكل على اللّه .

*****

سار العمل بين الشريكين على خير ما يكون ، فقد كانا متوافقين فى أخلاقهما الخاصة بالعمل . و لم يؤثر شح توفيق على عملهما معا فقد كان متولى يشجع هذا البخل فى

التجارة ، فالعائد منه ينتفع به الشريكان . ومرت الأيام وغـيّر متولى رأيه فى توفيق ، ذلك الرأى الذى ثبت فى ذهنـه حـين كان توفيق يماكس الحاج خيرى الوزان فى شراء الشقة .

*****

الفصل الثامن

أصبحت صبيحة صديقة حميمة لتفيدة البرشومى وزبيدة الكرماوى زوجتى متولى . وقد تعجب أن تتفق ضرتان على صداقة واحدة ، ولكن إذا علمت أنهما ضرتان على غير خلاف ، وهو أمر نادر الحدوث ولكنه حدث ، وهكذا لا عجب هناك . وكذلك لا عجب أن الضرتين عاونتا صبيحة عندما ولدت ابنتها التى أسماها بموافقة أمها " مبروكة " ، تفاؤلا بنقلتهم إلى القاهرة . ومر عام آخر وجاءت صبيحة بأخ لمبروكة أسمياه " فتحى " آملين أن يكون فاتحة خير .

وبعد الولادة بأيام قال توفيق لزوجته :

ـ الحمد للّه أصبح عندنا الولد والبنت .

ـ أنا فاهمه قصدك .

ـ ما رأيك ؟

ـ الأمر أمرك .

ـ علينا أن نفكر فى المصاريف التى سننفقها عليهما .

ـ أنا طبعا أعرف طبعك ولن أحمل بعد هذا ، إنما لى عليك شرط .

ـ منذ متى يكون لك على شروط ؟

ـ هذه المرة فقط ، وبعد ذلك لن تسمع منى هذه الكلمة أبدا .

ـ قولى .

ـ يتعلم الاثنان حتى يأخذا الشهادة العالية .

ـ الاثنان ؟

ـ أنا خرجت من المدرسة صغيرة ، ولهذا تجدنى لا أفهم شيئا من أعمالك مطلقا ولا أريد لمبروكة أن تصبح مثلى .

ـ وإذا جاءها العريس ؟

ـ ينتظر حتى تتم تعليمها .

ـ نحن نتكلم عن أشياء يفصل بيننا وبينها سنوات طوال .

ـ أعرف ، ولكن أريد أن أطمئن .

ـ توكلى على اللّه .

ـ كله على اللّه . ولكنى أريد أن أسمع منك وعد رجل .



ـــ أعدك وأمرى إلى اللّه .

*****

انفرد توفيق بمتولى فى الوكالة وقال متولى :

ـــ أنت تأخرت علىّ فى موضوع مدبولى .

ـــ العمال عندك لا يصلحون للعملية التى أريد القيام بها . نأتى بعمال معهم .

ـــ تنزل البلد وتأتى لى بكم رجل من أولاد الليل الذين يفوتون فى الحديد .

ـــ ما أكثرهم عندنا . ولماذا لم تقل لى هذا من زمان ؟

ـــ لا شأن لك . كنت أحتاج إلى وقت لأدرس العملية .

ـــ أنزل بكره البلد .

ـــ توكلنا على اللّه .

ـــ كم رجلا تريد ؟

ـــ يكفينى اثنان يقومان بالعملية ويعودان .

ـــ ولماذا يعودان ؟ سيبقيان فى الوكالة .

ـــ يبقيان فى الوكالة ؟! ولماذا ندفع لهما مرتبا .

ـ لا تخف ، أمثال هذين مكسب . وإن كنت لا تريدهما أعطيهما المرتب من نصيبى فى الوكالة .

ـ لا . سأشترك معك فعلا ، وجود مثلهما مكسب .

*****

ازداد مكسب الشريكين ، وبعد أن كانت الأرباح تعد بالآلاف دخلت ميدان الملايين . وكان كلاهما لا يقنع بما يكسب وإنما كلاهما يطلب المزيد . وطبعا اتسعت تجارة توفيق فى الإقراض بالربا الفاحش ، وقد ارتفعت الأرقام إلى مبالغ كبرى و لم يعد يقبل من المدين إيصال أمانة بل حل مكانه الشيك . والعجيب أن هذه الأموال الضخام لم تمنع توفيقا أن يفكر لتدبير عملية ليزداد مدبولى هو وشريكه بها ثراء .

*****

أحضر متولى معه سرحان النمر وبكرى الشماع ، وكان كلاهما من القتلة المحترفين . وحين عرف توفيق تاريخ

حياتهما راح أربعتهم يضع تفاصيل الخطة التى فكر فيها توفيق .

*****

كان التدبير يوم السبت ، وتم الاتفاق على التنفيذ يوم الإثنين .

وفى مساء يوم الإثنين خرج سرحان النمر وبكرى الشماع ومعهما صميدة الضبع أحد عمال متولى القدامى ، ويمت بصلة قرابة لبكرى الشماع . خرج ثلاثتهم فى بهيم الليل ومع كل منهم مسدس سريع الطلقات ، وكان صميدة يحمل فى يده صفيحة من البنزين وكان الثلاثة يحمل كل منهم عصا غليظة . وكانت الأوامر التى صدرت إليهم ألا يقتلوا أحدا من الخفراء إلا إذا اضطروا لذلك ضرورة حتمية ، كما كانت الأوامر تقضى بأن يبتعدوا مع إشعال النار عن السور الذى يفصل وكالة متولى عن وكالة مدبولى .

كان على باب وكالة مدبولى خفير مسلح ، ففاجأه سرحان بضربة عنيفة على رأسه أفقدته الوعى . وكان ثلاثتهم

يعلمون أن بالوكالة ثلاثة خفراء ، ووجد المهاجمون الخفراء الثلاثة يدخنون الجوزة حول نار أوقدوها .

وضع صميدة صفيحة البنزين على الأرض ، وتهامس ثلاثتهم وعرف كل منهم الشخص الموكول به أن يضربه . وتم ما اتفقوا عليه دون أن يلاقوا من الخفراء الثلاثة أية مقاومة . وراح صميدة يصب البنزين على البضاعة الموجودة بالوكالة جميعها ، مبتعدا عن السور الفاصل بين الوكالتين ، وخرج المهاجمون الثلاثة سالمين وتم الحريق .

*****

عرف مدبولى الفاعل ، ونصحه محاميه عاطف الزينى أن يقدم بلاغا إلى النيابة يتهم فيه متولى بالحريق . وقال مدبولى :

ـ لا شك أنه هو ولكن أين الدليل ؟

ـ نقول فى التحقيق أنك ليس لك أعداء إلا هو .

ـ أنت تريد أن تعمل قضية من الهواء . هل هذا يصلح دليلا ؟ وأرتج على عاطف وسلم أمره إلى اللّه .

*****

ذهب مدبولى إلى متولى فى الوكالـة وكـان توفيـق جالسـا معه :

ــ عملتها يا متولى ؟

ــ ما هى التى عملتها ؟

ــ لا فائدة من الكلام ، طبعا لن تعترف .

ــ إن كنت عملت حاجة أعترف .

ــ أنا قلت لك لا فائدة من الكلام . طلباتك ؟

ــ أنا ليس لى طلبات .

ــ معنى هذا أنك لن تسكت عنى .

ــ أنا فعلا ساكت عنك .

ــ قل طلباتك .

ــ إن كان على طلباتى فأنت تعرفها .

ــ أعرفها ، ولكن أحب أن أسمعها منك .

وهنا قال توفيق :

ــ كلاكما يعرف ما يريد من الآخر ، فما الداعى لإضاعة الوقت ؟

وقال مدبولى :

ــ وهو كذلك ياسى توفيق . أنا أعلم أن متولى لا يريدنى أن أبيع أرخص منه .

ــ أليس هذا عدلا ؟

ــ لا شأن لنا بالعدل . للك عليّ أن نتفق على السعر كل شهر .

ــ وهو كذلك .

ــ وطبعا لن تبيع بسعر أقل من سعرى .

ــ توكلنا على اللّه .

*****

الفصل التاسع

قال توفيق لمتولى :

ــ أنا أرى أن أثمان المبانى ترتفع .

ــ فعلا ، ففى الأيام السود كان لا أحد يضع حجرا على حجر مخافة أن يصادر .

ــ المهم أريد أن أشترى العمارة التى أسكن بها .

ــ طبعا أنت تعرف أن الشراء لن يكون على الأساس الذى اشتريت به شقتك .

ــ أنا أعرف ، وأنا أريد الشراء قبل أن ترتفع الأسعار .

وركبا سيارة توفيق وذهبا إلى مكتب الحاج خيرى الوزان ، وقال توفيق :

ــ أريد أن أشترى العمارة التى أسكن بها .

ــ ومن أدراك أنى أريد بيعها ؟

ــ يا حاج خيرى أنت مقاول كبير ، والمقاول يحتاج لمال سائل ولا يهمه أن تكون له عمارات .

ــ ولكننى لم أعرضها للبيع .

ــ احمد ربنا أننى أتقدم لشرائها ، فأنت لم تبع فيها إلا شقتى أنا والشقق الأخرى المؤجرة لا تكسب منها إلا قروشا .

ــ فلماذا تريد أن تشتريها ؟

ــ مغفل .

ــ العفو لابد أنك ناوى على نية .

ــ النية التى عندى حتى الآن هى الشراء .

ــ وأنا بائع .

ــ نتكلم فى الثمن .

واستطاع توفيق بمعاونة متولى أن ينزلا من الثمن سبعة آلاف جنيه . وتم البيع وسجلاه فى الشهر العقارى .

*****

كان توفيق حين اشترى العمارة ينوى أن يخرج السكان ولكن الأمر استحال عليه ، فاتفق معهم على أن يزيد قيمة الإيجار . وقبل السكان اتقاء للخلافات التى تنشب بين المالك والمستأجر .

*****

كانت مبروكة وفتحى مجدين كل الجد فى دراستهما ، ولم يكن هذا عن طبيعة فيهما وإنما الفضل يرجع أولا وأخيرا إلى أمهما التى كانت فى دخيلة نفسها غير راضية عن جهلها ، وكانت تريد أن تبعد شبح هذا الجهل عن ابنها وابنتها .

استنجدت صبيحة بتفيدة البرشومى لإقناع توفيق بإدخال مبروكة إلى الجامعة ، وقد فوجئت تفيدة بهذا الطلب حين قالت لها صبيحة :

ـ أنا قصداك فى جميل لن أنساه لك .

ـ أنا تحت أمرك .

ـ مبروكة بنتى .

ـ ربنا يطيل عمرها . ما لها ؟

ـ حصلت فى الثانوية العامة على مجموع كبير جدا .

ـ تسلم .

ـ وهى تريد وأنا أريد أن تدخل الجامعة بأى ثمن .

ـ الجامعة .. وماذا تفعل بالجامعة ؟

ـ البنت ذكية وتفهم فى كل شىء ، وحرام أن نحرمها من التعليم .

ـ بل الحرام ألا تتزوج . أنا جائية إليك لأخطبها لابنى سعيد .

ـ أنعم وأكرم .

ـ وتقولين لى جامعة .

ـ وهل هذا يمنع ؟

ـ أنت إذن موافقة ؟

ـ وهل نجد لها خيرا من سعيد . فقط أسالها وسى متولى يكلم أباها .

ـ طبعا يا حبيبتى .

ـ إذن أعطينى فرصة .

ـ إذنك معك يا حبيبتى .

ـ ولكن هذا لا يمنع دخولها الجامعة .

ـ وحصولها على الشهادة العليا .

ـ إذن اتفقنا .

— فتك بعافية يا حبيبتى .

— مع ألف سلامة .

كانت صبيحة واثقة من موافقة توفيق على زواج سعيد من مبروكة ، فقد تبينت من أحاديثه معها أن هذا الزواج واحد من أمانيه النادرة التى باح بها لزوجته فلم يكن يحادثها فى أى شيء من أعماله . أما إذا كان الأمر يتعلق بزواج ابنتها فلا بأس أن يحادثها فيه . وقد سرت صبيحة من الخطبة ورأت فيها وسيلة لقبول زوجها أن تدخل ابنتها الجامعة . وبادرت مبروكة بقولها :

— جاء لك عريس .

— هل معنى هذا ألا أدخل الجامعة ؟

— على العكس .

— من هو العريس أولا ؟

— سعيد ابن عمك متولى .

وصمتت مبروكة ولم تجب . وقد كانت هذه الخطبة متوقعة وأنا لا أعرف فى بيتنا شيئا ذا أهمية إلا الفلوس . فما البأس أن أتزوجه وهو غنى وليس جهله مانعا ، فما دام غنيا فكل شىء يغتفر له . وعلى كل ليس فى مصر أغنياء اليوم إلا الجهلاء . وأفاقت من تفكيرها على أمها تصيح بها :

ــ مالك سكت . ألا يعجبك ؟

ــ يعجبنى بشرط .

ــ قلت لأمه هذا الشرط ووافقت عليه ، وليس علينا الآن إلا أن نحتال على أبيك .

وحين جاء توفيق لبيته فى الظهيرة ، سألته صبيحة فى تخابث :

ــ هل قابلت متولى اليوم ؟

ــ نعم لماذا ؟

ــ ألم يقل لك شيئا ؟

ــ ماذا تنتظرين أن يقول ؟



ـ يعنى ، فقد جاءتنى اليوم زوجته تفيدة .

ـ وهل يعنى مجيئها أن يقول لى متولى شيئا ؟

ـ خطبت مبروكة لابنها سعيد .

وتهلل وجه توفيق :

ـ صحيح ؟

ـ نعم وحياتك .

ـ وماذا قالت مبروكة ؟

ـ موافقة بشرط .

ـ أى شرط تطلبه أنا موافق عليه .

ـ تكمل الجامعة .

ـ ماذا ؟

ـ ما سمعت .

وأطرق توفيق لحظات وقال :

ـ هل عرفت تفيدة هذا الشرط ؟

ـ ووافقت عليه .

وبعد الظهيرة من نفس اليوم جاء متولى ومعه زوجته ، وتمت الخطبة على أن تدخل مبروكة الجامعة ويتزوجها سعيد قبل التخرج بسنتين . ووافقت مبروكة ورنت الزغاريد فى بيت توفيق .

ودخلت مبروكة كلية الهندسة قسم المعمار ، وبعدها بعام واحد دخل فتحى أخوها كلية الطب .

*****

الفصل العاشر

كان الشيخ إسماعيل عوض يزور ابنته غرارا ، وشهد الغنى الفاحش الذى أصبح يتمتع به توفيق ، والذى تمثل عند الشيخ إسماعيل فى الأثاث الفاخر الذى بذلت صبيحة جهدها الكثيف حتى جعلت توفيق يشتريه قائلة له :

ـ لقد أصبحت الآن من الأعيان ، ولو جاءك زائر من زوار العمل ورأوا أثاثنا هذا لاحتقرنا ، ولخسرت الصفقة التى جاء من أجلها .

ـ ومن هذا الذى سيأتى ؟

ـ أنت الآن تاجر كبير ولا تأمن أن يقصد إليك زوار محترمون بينك وبينهم مصالح .

وكان فى قولها هذا فصل الخطاب .

وقد بهر الشيخ إسماعيل أبو صبيحة من جمال الأثاث ومن الملابس الفاخرة التى تلبسها ابنته ، التى أخبرته أيضا بأن توفيق اشترى العمارة التى يسكنون بها . وحين جاء الشيخ إسماعيل لم يكن بالبيت إلا ابنته التى رحبت به غاية

الترحاب ، و لم يكن ذلك عن صلة الرحم وحدها ولكن لأنها كانت تقدر فى أبيها العفة النقية ، حتى أنه رفض هديتها إليه وكانت قماشا فاخرا لجلباب . وهكذا كان من الطبيعى وقد رفض الهدية ألا يفكر أن يستعين بابنته مهما ضاق به العيش .

سأل الشيخ إسماعيل صبيحة :

ـ أين زوجك ؟

ـ أظنه سيأتى حالا فهذا موعده .

ـ إذن أنتظره .

ـ وتتغدى معنا اليوم .

ـ لقد تغديت فى مطعم بسيدنا الحسين قبل أن آتى .

ـ ألا تلاحظ يا أبا أنك لم تذق فى بيتنا لقمة منذ تزوجت ؟

ـ هل يمكن أن أتغدى مرتين ؟

ـ أنا لا أقصد اليوم ، وإنما أقصد حرصك على ألا تأكل عندنا .

ـ صدفة يا بنتى . المهم هل أنت سعيدة ؟

ــ رغم بخل توفيق الشديد نحمده ونشكر فضله .

ــ لا جديد فى هذا . لابد أنك تعودت على هذا البخل .

ــ يا أبا إنه كلما اغتنى زاد بخله .

ــ البخل يا بنتى ليس بالغنى أو الفقر . إنه طبيعة فى الإنسان .

ــ المهم أبشرك أن مبروكة خطبت .

ــ والجامعة ؟

ــ ودخلت الجامعة .

وقصت صبيحة قصة الخطبة والجامعة على أبيها ، وقبل أن تكملها جاء توفيق ورحب بحميه . وحين استقر بهم المجلس قال الشيخ إسماعيل :

ــ أنا قادم إليك فى عمل أرجو أن يسرك .

ــ أهلا وسهلا بك سواء كنت قادما فى عمل أو فى غير عمل .

ــ حُفظت . أنت تعلم طبعا أن ثمن الفدان قد ارتفع ارتفاعا كبيرا .

ـ طبعا أعرف . الفدان اليوم يساوى خمسين ألف جنيه أو أكثر .

ـ عليك نور .

ـ هذا عملى ، وفي نفس الوقت إيراد الفدان زاد ولكن ليس بنفس النسبة .

ـ أرسل إلى وجدى بك شاكر .

ـ عضو بمجلس الشعب ؟

ـ نعم ، هو يريد أن يشترى منك عشرة أفدنة .

ـ ولماذا لا يشترى الأرض كلها ، والبيت أيضا بأرضه .

ـ لعله لا يملك ثمن الأرض كلها . ومن المؤكد أنه لا يريد البيت .

ـ بل عنده ثمن الأرض ومثلها مرتين ، أما البيت فتستطيع أن تبيعه وتكسب منه أيضا .

ـ هل عندك مانع أن نذهب إليه معا .

ـ هل سمعت فى حياتك عن بائع يذهب إلى المشترى .

ــ من جهة سمعت . نعم سمعت ولكنك تريد أن تظهر زهدك فى الصفقة حتى تبيع بثمن مرتفع .

ــ وماله ؟

ــ إذن أذهب إليه وأخبره .

ــ ومتى ترد على ؟

ــ فى ظرف يومين على الأكثر .

*****

وتمت الصفقة كما أرادها توفيق ، وكسب فوق ثمنها أنه تعرف على وجدى شاكر عضو مجلس الشعب .

وكان موقف الشيخ إسماعيل غاية فى العفة والإباء ، فحين عرض عليه وجدى شاكر خمسة آلاف جنيه مقابل إتمامه الصفقة ، قال له فى شموخ :

ــ أترتضى لى هذا ؟

ــ إنه بعض حقك .

ــ لست كما تظن .

وحين عرض عليه صهره توفيق ألفى جنيه ، قال له فى عنف :

ــ هل كنت سمسارا عند أبيك ؟

ــ العفو . اعتبر المبلغ هدية من زوج بنتك .

ــ ومنذ متى رأيتنى أقبل هدايا من زوج بنتى ؟ وكيف أقبل منك هدية وأنا أرفض أن آخذ من بنتى أية هدية ؟

وطبعا أحس توفيق بالسعادة ، واعتبر حماه عبيطا ساذجا .

لم يكن غريبا أن يقول توفيق لشريكه متولى :

ــ ما رأيك أن نعمل فى المقاولات ؟

ــ واللّه لا بأس ، وإنما نحن لا نفهم فيها .

ــ أعرف هذا ، وفكرت فيه ووجدت حلا .

ــ ما هو ؟

ــ نشارك خيرى الوزان نحن بأموالنا ، وهو بأمواله وخبرته .

ــ واللّه فكرة عظيمة .

ــ قم بنا إليه .

قال متولى لخيرى :

ــ ما رأيك أن نكون شركاء ؟

ــ والله لا بأس ، فإنى أرفض كثيرا من العمليات لنقص السيولة المالية .

ــ غريب أن تكشف لنا هذا السر .

ــ ليس فى الأمر غرابة ، فما دمنا سنصبح شركاء فأنا أحب أن أريكم أننى لا أخفى عنكم أسرار عملى بما فيها نقص السيولة أحيانا .

وقال توفيق :

ــ وما تقوله يجعلنا نزداد ثقة بك .

ــ وكيف ستكون قسمة الأرباح ؟

ــ على حسب رأس المال فى كل عملية .

ــ أنا صريح نعم ، ولكنى لست ساذجا .

وقال توفيق ومتولى معا :

ــ أستغفر الله .

ــ لماذا جئتما إلىّ و لم تعملا فى المقاولات وحدكما ،

مادام المال عندكما ؟

وقال متولى :

ــ المال وحده لا يكفى . لابد من الخبرة والمران .

ــ والخبرة والمران لا يشتريهما مال .

ــ طبعا كلانا يعرف ذلك .

ــ إنهما سنوات عمر ، وممارسة وحنكة ودربة .

قال متولى :

ــ طبعا . وهل فى هذا شك ؟

ــ وهذه الخبرة أليس لها ثمن ؟

ــ طبعا .

ــ فكيف تكون قسمة المكاسب متساوية ؟

وقال متولى :

ــ لك حق .

ــ طبعا لى حق .

ــ فماذا تقدر لنفسك لقاء خبرتك ؟

ـ الخبرة والأمانة اللتـان جعلتكما تقصدان إليّ ، ثمنها لا يقدر بمال .

ـ طبعا . .

ـ إذن تكون الأربـاح باحتجاز خمسين فى المائة مقابل خبرة من الأرباح لى ، والباقى يقسم على حسب رأس المال لكل منا .

وهنا صاح توفيق :

ـ يا خبر أسود .

وقال خيرى :

ـ بل أبيض إن شاء اللّه لا تنزعج ، فلولا هذه الخبرة ما تحققت أية مكاسب .

ـ لم نقل شيئا ، ولكن خمسين فى المائة أمر غير محتمل .

ـ ما الذى تراه محتملا ؟

ـ نقول مثلا عشرين فى المائة .

ـ طبعا مستحيل .

وهنا تدخل متولى فى الحديث قائلا :

ــ لننهى هذه الحكاية ونتوسط فى الأمر . ما قولك يا حاج خيرى نجعلها ثلاثين فى المائة ؟

ــ قليلة .

ــ خمسة وثلاثون فى المائة .

ــ على بركة اللّه . قل شيئا يا توفيق بك .

ــ واللّه النسبة كبيرة ، ولكن على بركة اللّه كما قلت .

وقال متولى :

ــ نذهب اليوم إلى الأستاذ حسان المهدى ونكتب عقد الشركة .

واستقبلهم الأستاذ حسان مرحبا ، فقد كان المحامى الذى يعطيه متولى كل أوراقه . وقد أعجب به توفيق أيضا فكان محامى الشركة التى قامت بين متولى وتوفيق ، فحين تم الاتفاق بين عناصر الشركة الثلاثية لم ير الحاج خيرى مانعا أن يكون حسان محامى الشركة . وكانت الأواصر قد توطدت بين حسان وتوفيق كما كانت من قبل وطيدة بين حسان ومتولى ، وبلغت العلاقات بين توفيق وحسان من

المتانة إلى درجة أن توفيقا دعـا حسـانا للغـداء بمنزلـه . الأمـر الذى لم يسبق لتوفيق أن صنعـه مـع أى صديـق آخـر . وفـى هذه الدعوة تعرف حسان على مبروكة وفتحى .

*****

الفصل الحادى عشر

تزوجت مبروكة وهى ناجحة من السنة الثانية إلى الثالثة بكلية الهندسة من سعيد ، واتفقا على أن يؤجلا الإنجاب حتى تتخرج مبروكة . وكان سعيد زوجا طيعا متفقا كل الاتفاق مع مبروكة المستبدة ، حتى إنه كان ينزل على رأيها فى كل كبيرة وصغيرة .

وطبعا عملت مبروكة حين تزوجت ـ وحتى قبل أن تتخرج ببضعة أشهر ـ بشركة المقاولات التى يشارك فيها أبوها وحموها ، وراحت تتدرب على يد مهندسين كبار . حتى إنها لم يمر عليها عامان حتى كانت مهندسة ذات خبرة وممارسة .

وأحب الحاج خيرى أن يجربها ، فأوكل إليها بناء فيلا لثرى من زبائنه هو شحاته عبد الموجود . وهو ذو ثراء واسع لدرجة أنه رشح نفسه فى انتخابات مجلس الشعب وأنفق أموالا طائلة ، إلا أن المرشح المنافس كان أكثر ثراء ، وكان النجاح من نصيب الأكثر ثراء وإنفاقا . كان شحاته مرشحا

عن العمال وقد تعرف عليه الحاج خيرى أثناء المعركة الانتخابية . ولهذا لم يكن غريبا أن يقصد شحاتة إلى خيرى ليبنى له فيلا من طابقين ليزوج فيها ابنيه . ولم ير خيرى بأسا أن يكلف مبروكة برسم هذه الفيلا . وهكذا تعرفت مبروكة بشحاتة وتبينت مقدار ثرائه ، وعرفت أن له ثمانى قطع من الأرض فى أعظم أحياء القاهرة وأفخمها ، وعلمت أن القطع تتراوح بين الألفى متر والثلاثة الآلاف .

وقد بذلت جهدا عظيما فى تجميل الفيلا التى رسمتها ، حتى لقد أبدى شحاتة إعجابه بها وقدم إليها ألفى جنيه هدية خاصة من عنده بعيدة عن الشركة ، وطلب إليها أن تشرف هى على بناء الفيلا ، إلا أن مبروكة قالت :

ــ لن يسمح لى الحاج خيرى بهذا .

ــ سأعطيك مبلغا كبيرا مقابل هذا الإشراف .

ــ أنا أتمنى ، ولكن المهندسين المشرفين فى الشركة غير المهندسين الرسامين .

ــ ولكنى أريدك أنت بالذات .

ــ قل هذا للحاج خيرى ، ربما يقبل .

ــ مؤكد سيقبل .

ــ فإذا قبل فأطلب إليه أن تخصص لى سيارة من سيارات الشركة .

ــ وهو كذلك ، ولكن أليس أبوك شريكا معه ؟

ــ فعلا . ولكنه لا يكلمه فى شىء لى مطلقا .

ــ هذه غريبة .

ــ ما أكثر الغرائب يا شحاتة بك .

ــ مثل ماذا ؟

ــ أنت مثلا إنسان غريب .

ــ لماذا ؟

ــ مع غناك الفاحش هذا لا أرى حولك رجال أمن ، وليس لك إلا سكرتير واحد .

ــ يا بنتى أنا أدير أعمالى بنفسى . أما رجال الأمن فعملية مظهرية لا يعرفها أمثالى من الذين عملوا غناهم بأيديهم ، لا بآبائهم وأجدادهم .



ـ إذا فرضنا أنك آمن فى سيارتك ، ألا تمشى ؟

ـ على العكس أنا أمشى ساعة فى اليوم .

ـ متى وأنت مشغول طول النهار ؟

ـ أنا أنام بعد الغداء من الساعة الخامسة إلى السادسة ، ثم تجديننى أمشى فى الشارع .

ـ وحدك .

ـ وحدى .. ابناى كل منهما له حياته الخاصة .

ـ ربنا يحميك .

ـ تأكدى أننى سأصمم على خيرى أن يجعلك تشرفين على بناء الفيلا .

ـ ولا تنس السيارة .

ـ طبعا لن أنسى السيارة ، وبها سائق أيضا .

ـ لا ، لا داعى للسائق فقد تعلمت قيادة السيارات على سيارات زملائى فى الكلية .

ـ ولماذا لم يشتر لك أبوك سيارة ؟

ـ يا شحاتة بك أنا كانت تطلع عينى ليدفع لى ثمن الكتب ، وكان فى كل مرة يقيم مناحة فى البيت لأنى دخلت الجامعة . الأمر الذى كلفه الكثير من المال .

ـ وهل ظل كذلك بعد زواجك وأنت فى الجامعة ؟

ـ من يوم زواجى لم أر محفظة أبى .

ـ أعوذ بالله .

ـ وما خفى كان أعظم .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل أنه يشتم أمى ويكاد يضربها إذا تبقى شىء من الأكل . ومثل أن اللحمة لا تدخل بيته إلا يوم الجمعة .

ـ ولماذا الجمعة ؟

ـ هذه أوامره ولا تحاول أن تجد لها أسبابا .

ـ وما أخبار زوجك ؟

ـ لا ، هذا شىء آخر ولكن المال فى يده ليس كثيرا .

ـ لا خلافات بينك وبين زوجك .

ـ لا ، إنه يفعل ما أريد . أما من ناحية الفلوس فأنا أعرف المرتب الذى يأخذه من الشركة ، وأحاول ألا أجعله ينفق أكثر منه .

ـ أنت سيدة عظيمة .

ـ يكفينى رضاك .

ـ توكلى على اللّه .

ـ أطال اللّه عمرك .

*****

الفصل الثاني عشر

تخرج فتحي في كلية الطب وعمل بمستشفى الشفاء ، وهو مستشفى خاص . وفتحي يختلف في الملامح تماما عن أخته . حين نجد مبروكة سمراء ذات معارف قوية ، فالعينان واسعتان والفم ليس كبيرا والأنف دقيق ، ولا شيء من معارفها يعدو على جمالها ، الأمر الوحيد الذى تتفق فيه مع فتحي هو النحافة . ولكن فتحي أبيض الوجه سويّ الملامح في غير جمال ولا قبح ، تعبره عيناك ولا يستوقفهما من معارفه شيء خاص ، فهو رجل عادى مثل الملايين من الناس .

وفتحي طبيب باطنى ، ولذلك كان يكشف على كثيرين من القاصدين إلى المستشفى .

وكان من بين المرضى الذين يراهم مريض عرف أن اسمه نعمان عميرة وسأله :

ــ ما عملك ؟

ــ أعمل في بنك الاستثمار .

ــ فى أى قسم منه ؟

ــ قسم الائتمان .

ــ هذا مكان مهم جدا .

ــ نعطى لغيرنا ولا ننال مما نعطى شيئا .

ــ هذا أمر لا يجوز .

ــ هذا هو الواقع ، مع أننى رئيس القسم .

ــ سأزورك فى البنك ونحاول أن نصلح هذا الواقع .

ــ أهلا وسهلا بك يا دكتور .

ــ أترك لى أيضا عنوانك ورقم تليفونك .

ــ هذه بطاقتى بها كل ما تريد .

ــ شكرا .. لا تخف على صحتك ، ليس بك شىء .
مجرد إرهاق بسيط والدواء الذى كتبته لك سيجعلك مثل الحصان .

ــ ألف شكر يا دكتور . السلام عليكم .

كان قد عين مع فتحى فى نفس المستشفى اثنان من خريجى دفعته ، هما وائل العصفورى وصالح النجمى ، وكلاهما ينتسب إلى أبوين غاية فى الثراء .

وقد كان فتحى يضيق غاية الضيق ببخل والده وشحه ، حتى إنه حين فاتحته صبيحة قائلة بمشهد من أبيها الشيخ إسماعيل عوض :

ــ الآن أريد أن أفرح بك ، وأنا اخترت لك عروسا فى غاية الجمال . ما رأيك فى فريدة بنت عمك متولى ؟

ــ تقصدين أن أتزوج .

ــ ولماذا لا ؟

ــ يا أمى حرام عليك . هل نجد ما نأكله حتى أتزوج .

قال جده :

ــ كيف هذا ؟! إن أباك من أغنياء مصر المعدودين .

ــ وهذا أدهى وأمر ، أقسم لك يا جدى إننى كثيرا ما أترك المائدة وأنا ما أزال جائعا لم أشبع .

وقال الشيخ إسماعيل :

ــ أعوذ باللّه ، أعوذ باللّه . المال مالك إذا استعبدته وعشت به ، أما إذا عبدته فهو الوبال عليك فى الدنيا والآخرة .

ــ هذا الكلام لا نسمعه ولا نحس به إلا حين نراك يا جدى .

ــ أعوذ باللّه . ألا تذكرون اللّه فى هذا البيت ؟

ــ لولا صلاة أمى ما عرف بيتنا اسم اللّه مطلقا .

ــ لا إله إلا اللّه ، ومادمت تقول هذا لماذا لا تصلى أنت ؟

ــ هل كنت رأيت أبى يصلى حتى أصلى ؟

ــ هذه حجة واهية . أتريد أن تكون مثل أبيك فى الشح الشديد الذى يتصف به ؟

ــ أعوذ باللّه ! طبعا لا .

ــ إذن لماذا تقلده فى عدم الصلاة ؟ إن اللّه سبحانه يقول : وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما .

ــ لا أذكر أن أبى ذكر اللّه فى حياته إلا حين يقسم .

وغالبا ما يكون القسم كاذبا .

— كره اللّه هذا والمؤمنون . كره اللّه هذا والمؤمنون .

— وما لهذا ولزواجك ؟

— وكيف أستطيع أن أطعمها ؟

— بمرتبك .

— مرتبى لا يكفى ثمن سجائرى .

— مال أبيك لك بعد عمر طويل لا يشاركك فيه إلا مبروكة بالثلث فقط .

— الواضح أن هذا العمر سيكون طويلا غاية الطول ، فصحة أبى قوية والحمد للّه .

وقال الشيخ إسماعيل :

— أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم . أتتمنى موت أبيك ؟

— لا طبعا . وإنما أذكر الحقيقة .

— هذا بيت لا أحب أن أجلس فيه . سلام عليكم !

وقام مغادرا ابنته وحفيده اللذين ودّعاه ، وعادت صبيحة من وداع أبيها وقالت :

ــ أنت إذن ترفض فكرة الزواج .

ــ لن أتزوج إلا بعد أن أصبح غنيا قادرا .

ــ ومتى يكون هذا ؟

ــ لا تتعجلى ، فهذا أمــر سيحدث ، وسأكون فـى مثـل غنى أبى إن لم يكن أكثر .

ــ كيف هذا إن شاء اللّه ؟

ــ أنا أفكر فى مشروع يحقق لى هذا وأكثر .

*****

خلــت حجــرة الأطبــاء بالمستشــفى بفتحـــى وزميليــه وائـل العصفـورى وصـالح النجمـى . وانتهـز فتحـى الفرصــة وقال لهما :

ــ أين ستذهبان اليوم مساء ؟

وقال وائل :

ــ ليس عندى شىء .

وقال صالح :

ــ وأنا أيضا .

قال فتحى :

ــ أريد أن ألتقى بكما . ما رأيكما أن نجتمع بمقهى الهيلتون اليوم الساعة السادسة ؟

وقبل كلاهما فكرة اللقاء .

وحين اجتمع شملهم بدأ فتحى الحديث :

ــ نحن الثلاثة نبذل جهدا كبيرا فى المستشفى دون عائد .

وقال وائل :

ــ هذا أمر طبيعى ، فثلاثتنا لم يفتح عيادة .

وقال صالح :

ــ وإذا فتحنا عيادة أمامنا سنوات حتى نصبح من المشاهير ، ونكسب منها كسبا حقيقيا .

وقال فتحى مسارعا :

ــ يسلم فمك يا صالح .

وقال وائل :

ــ هل عندك علاج لهذا ؟

ــ عندى علاج حاسم .

قال وائل :

ــ ما هو ؟

ــ نحن ثلاثتنا آباؤنا أغنياء . فما رأيكم نبنى مستشفى خاصا ؟

قال وائل :

ــ أما إنك شأنك عجيب .

ــ لماذا ؟

ــ أنت لا تنقطع عن الشكوى من أبيك وبخله وشحه وتقتيره عليك ! أهذا الأب يعطيك ما تساهم به فى بناء مستشفى خاص ؟

ــ مهما وصفت بخل أبى فإنه لا يصل إلى حقيقته .

قال صالح :

ــ فماذا أنت فاعل معه ؟

ــ أنه كذلك شحيح مقتر طالما كانت الأموال التى ينفقها بغير عائد . أما إذا كانت أموالا تأتى بأموال فحينئذ ينفق عن سعة .

ــ إذن المستشفى ستكون باسم ابيك .

ــ شريك معنا فقط .

قال وائل :

ــ واللّه المسألة فيها نظر .

قال وائل :

ــ أتعرفون كم يكلف المستشفى ؟

قال فتحى :

ــ لتكن التكلفة ما تكون .

قال وائل :

ــ وهل يقبل آباؤنا أن يقدموا الأموال التى تكفى ؟

ــ من قال ذلك ؟

قال صالح :

ــ أنت .

ــ أنا قلت إن آباءنا يساهمون .

قال صالح :

ــ وبقية التكاليف ؟

قال فتحى :

ـ هذا شأنى أنا .

قال وائل :

ـ بل شأننا جميعا .. قل لنا ماذا أنت فاعل ؟

قال فتحى :

ـ نحن بأموال آبائنا سنشترى الأرض فقط ، وبعد ذلك فى البنوك متسع للجميع ولا شأن لكم بهذا الموضوع .

قال صالح :

ـ واللّه الفكرة لا بأس بها ، وسأكلم أبى اليوم .

قال وائل :

ـ وأنا أيضا . ولكن هل وجدت الأرض ؟

ـ هذا أمر ميسور . لقد ذهبت ورأيت أرضا فى طريق المعادى أربعة آلاف متر وثمنها ثمانية ملايين جنيه . إذا دفعنا نصفها نستطيع أن نكمل من البنك .

*****

قال فتحى لأبيه :

ـ ما رأيك إذا قدمت لك مشروعا يدر عليك ذهبا لا تستطيع إحصاءه أو عده ؟

ـ أنت تقدم مشروعا يأتى بالذهب ؟

ـ نعم . وهل أنا صغير ؟

ـ ليست المسألة بالسن .

ـ أسمع مشروعى أولا .

ـ قل يا فالح .

ـ نبنى مستشفى استثماريا .

ـ أنا ؟

ـ لست وحدك .

ـ من معى ؟

ـ والدا وائل العصفورى وصالح النجمى .

ـ هل هما ابنا العصفورى والنجمى المعروفين ؟

ـ إنهما هما .

ـ إذن أجتمع بآبائهم .

ــ وهو كذلك .

*****

وتكونت الشركة فى هذا الاجتماع من الآباء الثلاثة وأبنائهم الثلاثة . وذهب الستة إلى الأستاذ حسان المهدى لكتابة عقد الشركة على أن يتولى فتحى التعامل باسم الشركة بصفة عضو الشركة المنتدب . ولم يضع فتحى وقتا وإنما قال لحسان المحامى :

ــ أريد أن أراك لاتخاذ التدابير اللازمة .

ــ غدا فى مثل هذا الموعد .

وحين ذهب فتحى إلى حسان فى الموعد ، قال :

ــ أريد أن أكتب على يديك مذكرة بجدوى المشروع .

ــ نكتبها معا .

واستغرقت كتابة مذكرة الجدوى ما يقرب من أسبوع . ما إن انتهيا منها حتى كلم فتحى فى التليفون نعمان عميرة رئيس قسم الإئتمان فى بنك الاستثمار .

ـ نعمان بك .

ـ أنا هو .

ـ أنا الدكتور فتحي توفيق .

ـ أهلا وسهلا . أهلا يا دكتور .

ـ ما أخبار صحتك ؟

ـ واللّه دواؤك نفعني جدا .

ـ الحمد للّه . أريد أن أراك .

ـ تحب أن تجيء إلي أم أجيء إليك ؟

ـ هل أنت مشغول الآن ؟

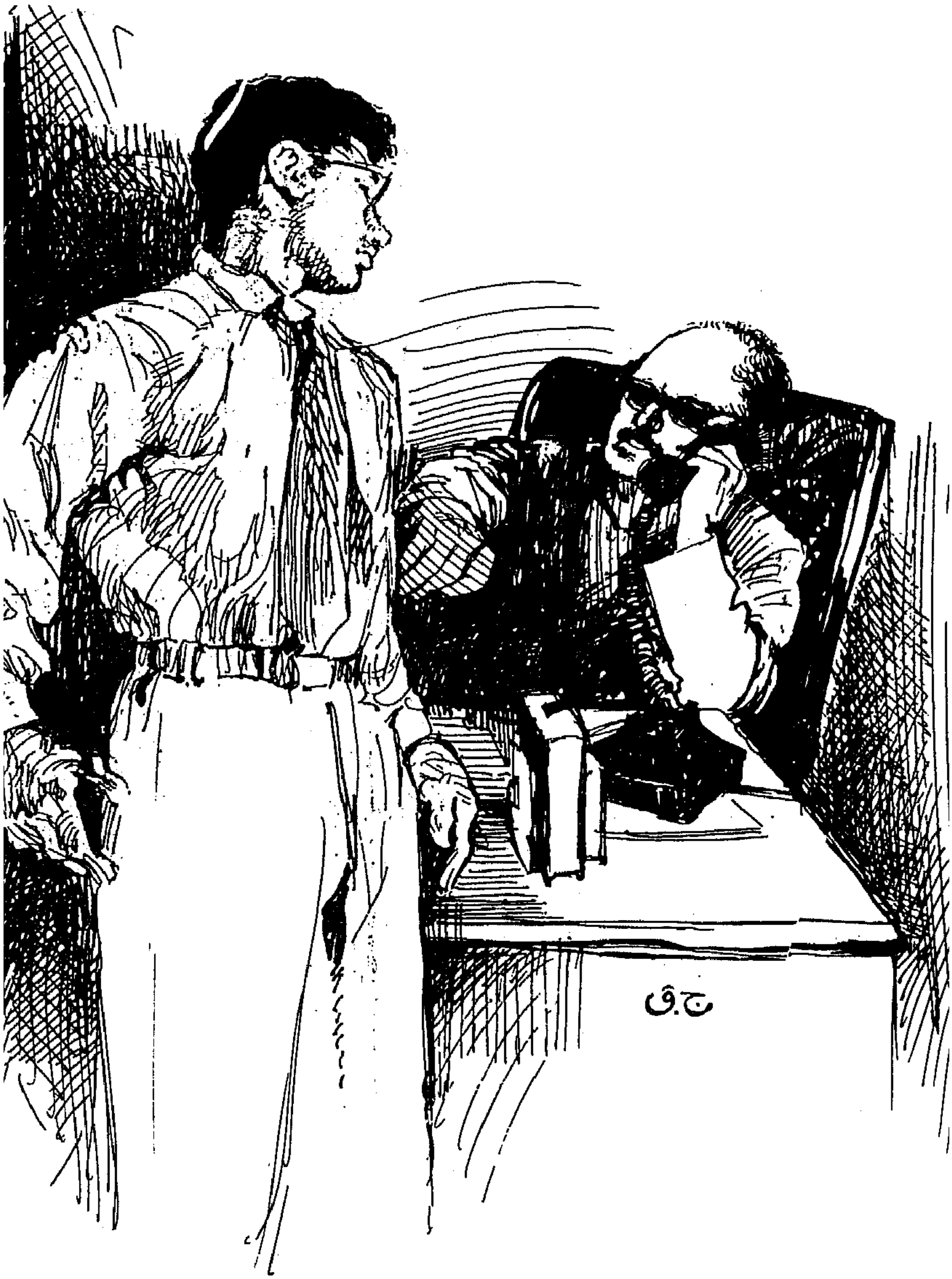
ـ وإن كنت ، هل أستطيع أن أشغل عنك ؟

ـ أريد أن أراك وحدك .

ـ أهلا وسهلا ، شرف الآن .

ـ أنا في الطريق إليك .

وذهب فتحي من فوره إلى مكتب نعمان عميرة ببنك الاستثمار ، واستقبله نعمان بترحاب كبير قائلا :



ــ أشكرك على علاجك لى ، فإن دواءك قد جاء بأحسن النتائج .

ــ الحمد لله .

ــ أنت ابن توفيق بك صبحى الثرى المعروف .

ــ نعم أنا ابنه .

ــ أهلا وسهلا ، أنا تحت أمرك .

وأخرج فتحى من جيبه ما أعده من دراسة الجدوى لمشروع المستشفى . وراح نعمان يقرأها بإمعان شديد ، وحين انتهى من القراءة قال لفتحى :

ــ مشروع عظيم .

ــ لقد اشترينا الأرض فعلا .

ــ وماذا أستطيع أن أفعل ؟

ــ أريد من البنك عشرين مليون جنيه .

ــ وماذا عن الضمانات ؟

ــ لو كان فيه ضمانات لما جئت إليك .

ـ هل تستطيع أن تزورنى اليوم فى البيت ؟

ـ وهو كذلك .

ـ هل بطاقتى معك ؟

ـ طبعا .

ـ فأنا منتظرك .

وأستأنفا حديثهما بالبيت :

ـ أنا أستطيع أن أعطيك العشرين مليونا .

ـ أنا اعرف ذلك .

ـ ولكن ؟

ـ طبعا .

ـ كم ؟

ـ ما تأمر به .

ـ أنت تعرف خطورة العملية .

ـ وأعرف أن مرتبك ضئيل .

ـ إذن ماذا تقدر لى ؟

ـ ما تقوله نافذ .

ـ لن أثقل عليك .. أريد مليون جنيه .

وصمت فتحى هنيهة ثم قال :

ـ واللّه لا أرد لك كلمة أبدا .

ـ على بركة اللّه .

*****

الفصل الثالث عشر

ذهبت مبروكة إلى الوكالة القديمة التى تركها حموها وأبوها وزوجها ، واتخذوا مقرا فاخرا لهم بشارع شريف مكونًا من خمس غرف ، ودفعوا فيه مبلغا ضخما . أما شئون الوكالة فقد تركوها لياسر بن متولى الذى كان قد تخرج فى كلية التجارة . ولم يكن ياسر منتظما فى الحضور إلى الوكالة معتمدا على العاملين بها من ذوى الخبرة ، ولم يكن أحد منهم يجرؤ على خيانة الأمانة مع خبرة متولى الفائقة وبخل توفيق الشديد .

فحين ذهبت مبروكة إلى الوكالة استقبلها صميدة الضبع وجلسا فى مكتب متولى .

ــ أهلا وسهلا بالباشمهندسة .

ــ قل لى ، أليس بكرى الشماع قريبك ؟

ـ نعم .

ـ أهو هنا ؟

ـ نعم .

ـ ناده .

وقالت مبروكة :

ـ العملية التى قمتم بها فى وكالة مدبولى لا تترك ذهنى مطلقا .

ـ وكيف عرفتها ؟

ـ إن أبى كثيرا ما يرويها لنا مفتخرا أنه هو الذى دبرها .

ـ صحيح هو الذى رسمها من أولها لآخرها .

ـ نريد أن نقوم بعملية مثلها .

ـ حريق آخر ؟

ـ لا ، المسألة أبسط من هذا . قل لى يا بكرى هل معك مسدس ؟

ـ ولا يترك جيبى .

ــ إذن نقوم بالعملية .

ــ متى ؟

ــ سأخبركما بالميعاد .

ــ هل ستأتين هنا مرة أخرى ؟

ــ لا ، سأطلبك فى التليفون .

ــ هذا أحسن . الحمد للّه اليوم ياسر ليس هنا . طبعا أنت لا تريدين أحدا أن يعرف .

ــ طبعا إذا كنت لم أقل لزوجى .

وقامت مبروكة وذهبت إلى مكتب حسان ووجدته . وخلت بهما الغرفة فقالت مبروكة :

ــ أريد أن تكتب لى عقد شراء أرض بناء .

ــ تحت أمرك .

ــ من المشترى ومن البائع ؟

ــ هل من الضرورى أن تعرف الأسماء ؟

ــ لاشك .

ــ المشترى صميدة الضبع ، والبائع شحاته عبد الموجود .

وفى خبرة المحامى الضليع اشتم حسان أن فى الأمر شيئا غير طبيعى ، بل قدر أن هناك ما يتنافى مع شرف المهنة . فقال لها أين أطراف العقد ؟

ــ موجودون .

ــ طبعا موجودون ، ولكن لابد أن يحضروا إلىّ .

ــ هذا مجرد عقد ابتدائى .

ــ ولكنه صادر من مكتبى .

ــ إذن أقول لهما ليأتيا إليك .

ــ أنا تحت امرك .

وأستأذنت وانصرفت ، إلا أن حسان لم يترك الأمر يمر ببساطة فأمسك سماعة التليفون وطلب رقما .

*****

طلبت مبروكة صميدة وقالت له .

ــ هل تعرف محاميا ؟

ـ أعرف محامين كثيرين .

ـ أريد محاميا يكون فى أول حياته .

ـ هذا أمر سهل .

ـ قل لى أين تسكن .

ـ أين أسكن ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ سأقول لك فيما بعد .

ـ أسكن فى شبرا .

ـ هل مسكنك مرتفع عن الأرض ؟

ـ بل هو تحت الأرض .

ـ هل زوجتك تعيش معك ؟

ـ زوجتى فى البلدة .

ـ إذن أنت وحدك فى البيت .

ـ نعم أنا أعيش وحدى .

ـ عظيم .

ـ ما هو ؟

ـ لا شأن لك . سأكلمك غدا وتكون قد أخذت موعدا من المحامى .

*****

أختارت مبروكة قطعة أرض مساحتها ثلاثة آلاف متر مملوكة لشحاتة عبد الموجود وعرفت حدودها كاملة . واصطحبت صميدة إلى أحد المحامين حديثى التخرج اسمه فوزى العنتبلى وكتب المحامى العقد باذلا فيه جهدا كبيرا ، وتقاضى ألف جنيه مقابل كتابة العقد وكتمان أمره .

*****

أطلعت مبركة صميدة الضبع وبكرى الشماع على خطتها ، ووافقا على القيام بها مقابل أن يتقاضى كل منهما مائة ألف جنيه .

*****

فوجىء شحاته عبد الموجود وهو يمشى فى شارع مجاور لمنزله خُلو من المارة ، برجلين ملثمين يمسكان به ويرغمانه بالمسدس على أن يركب سيارة وجد فيها رجلا ملثما آخر هو الذى يقود السيارة . وما لبثت السيارة أن تحركت . وفى ذكاء التاجر أدرك شحاته أنه لا فائدة من الكلام ، وما لبث الرجلان أن وضعا على عينيه عصابة ولم ينطق ببنت شفة .

وفى منزل صميدة دخل الرجال الثلاثة ومعهم شحاتة معصوب العينين ، وتأكد المختطفون أن الحارة ليس بها مارة .

وفى البهو الضيق أجلس شحاتة ورفعوا عن عينيه العصابة ، مما أتاح أن يرى المختطفين . وخيل إليه أن واحدا قريب الشبه من شخص يعرفه ولكن تعذر عليه أن يتأكد .

وأخرج بكرى الشماع مسدسه ووجهه إلى شحاته ، بينما أخرج الرجل الثالث العقد وأمر شحاتة أن يوقع . ولم يناقش

شحاته فقد تبين له أن العمليـة مدبـرة بإحكـام فـأخرج قلمـه ووقع على العقد ، ولكـن الأمـر لم ينتـه فقـد فوجـئ الأربعـة بالشرطة تداهمهم وتقبض على أفراد العصابة الثلاثة وتكشف اللثام عن وجوههم . وحينئذ يصيح شحاتة :

ــ أنت ؟! هذا غير معقول وأنا أعتبرك بنتى .

*****

ذعر توفيق مما حدث لابنته ، أما صبيحة فإنهـا تثـور لأول مرة فى وجه زوجها :

ــ بخلك هو الذى صنع هذه الكارثة الكبرى .

ولأول مرة يصمت فى ذلة وهوان .

*****

حكم على مبروكة بخمس عشرة سنة أشغال شاقة .

*****

وما هى إلا شهور حتى اكتشف البنك تزوير نعمان عميرة بالاشتراك مع فتحى توفيق الذى هرب الملايين إلى لندن . وقبض عليه بالمطار محاولا السفر إليها .

*****

ومنذ ذلك اليوم خيم البؤس والحزن على بيت توفيق وصبيحة ، وامتنع توفيق عن الخروج بعد أن أخرج من شركاته كلها .

والشيء الذى أصر عليه هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقات بسعة وكرم . وإنك لا تهدى من أحببت ولكن اللّه يهدى من يشاء . وصدق اللّه العظيم .

*****

انتهت بحمد اللّه .....

مجلس الشورى فى ٢٢ من جمادى الأولى عام ١٤٢٠هـ الموافق ٢ من سبتمبر عام ١٩٩٩م الساعة ١,٥١ ظهرا .

مؤلفات الأستاذ ثروت أباظة

- ثم تشرق الشمس
- لقاء هناك
- هارب من الأيام
- جذور فى الهواء
- أمواج ولا شاطئ
- الغفــران
- خشـــوع
- بريق فى السحاب
- لمحات من حياتى
- طارق من السماء
- القصة فى الشعر العربى
- خواطر
- ذكريات طه حسين
- ذكريات لا مذكرات
- وبالحق نزل
- السرد القصصى فى القرآن الكريم
- جداول بلا ماء

مؤلفات الأستاذ يوسف السباعى

اثنا عشر رجلا
اثنتا عشرة امرأة
ست نساء وستة رجال
السقا مات
طريق العودة
بين الأطلال
لست وحدك
جفت الدموع (الجزء الأول)
جفت الدموع (الجزء الثانى)
ليل له آخر (الجزء الأول)
ليل له آخر (الجزء الثانى)
هذه النفوس هذه الحياة
من العالم المجهول خبايا الصدور
ليالى ودموع أطياف
نفحة من الإيمان صور طبق الأصل
ليلة خمر من حياتى
مبكى العشاق فى موكب الهوى
سمَّار الليالى
هذا هو الحب
طائر بين المحيطين

من وراء الغيم
ابتسامة على شفتيه
أغنيات الشيخ زعرب
بين أبو الريش وجنينة ناميش يا أمة ضحكت
نائب عزارئيل البحث عن جسد
همسة غابرة أقوى من الزمن
أم رتيبة جمعية قتل الزوجات
نادية (الجزء الأول)
نادية (الجزء الثانى)
رد قلبى (الجزء الأول)
رد قلبى (الجزء الثانى)
نحن لا نزرع الشوك (الجزء الأول)
نحن لا نزرع الشوك (الجزء الثانى)
إنى راحلة
أرض النفاق
فديتك يا ليلى
وراء الستار
العمر لحظة

رقم الإيداع : ١٧٩٨٦ / ٩٩
الترقيم الدولى : ٢ ـ ١٣٤٠ ـ ١١ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه